هل حان الوقت لتجديد أفكارنا ؟! ... وأن نسير وفق معايير حديثة في لحظة تاريخية ملحة؟!

عادل السويدي

الحلقة الثانية

ـ كان إقليم عربستان(الأهواز أو الأحواز) هو أول منطقة في العالم يتم اكتشاف النفط فيه في تلك الآونة و كان ذلك في العام 1902 م حيث تم استخراج النفط لأول مرة من أراضيه في العام 1908م، و كان هذا الإقليم أول ضحية من ضحايا هذه التقسيمات و الضياعات التي تلتها فيما بعد ضياعات لمناطق أخرى كمناطق الأكراد و لواء الإسكندرونة و فلسطين و غيرها، فبعد موت الرجل المريض (الخلافة العثمانية) تقاتل الورثة: (بريطانيا و فرنسا و ألمانيا و الروس) على التركة، واستلب الورثة ما يمكن سلبه، ثم تسابقوا للسيطرة على الحصص التي قسّمها لهم الإنكليز والفرنسيون، مثل: ضم إقليم عربستان إلى إيران (بالقوة)، و لواء الإسكندرونة إلى تركيا(بالقوة)، و الأكراد تم توزيعهم على أكثر من دولة (بالقوة)، طبعا دون أن يفكروا ما إذا كانت هذه التقسيمات عادلة أم لا، ففي مثل هذا التوقيت يغيب منطق العقل و الوجدان.

ـ و قد دخلت المنطقة في تقسيمات و إحتلالات جائرة جاءت نتيجةً لمشروع استعماري في المنطقة سمي في وقته أي في العام 1917م باتفاق الـ (سايكس بيكو) الذي قسم المنطقة من خلاله فيما بين بريطانيا و فرنسا لدرء خطر المطامع الألمانية من جهة، و الروسية، من جهة أخرى فيها.

و قد ساهمت كل هذه الأمور في عدم تمكن ((مجتمعنا)) العربستاني في تلك الآونة من أن ينتقل ـ بفعل التطورات الحاصلة ـ إلى ((مجتمع)) متماسك قوي، للوقوف في وجه الأطماع و التحديات الماثلة، ما نتج عن ذلك ضياع إقليم عربستان العربي عن الوطن الأم، حيث دخل هذا الإقليم و شعبه العربي إلى مسار تاريخي مجهول، مع العلم أن الحركة القومية العربية التي كانت قد نشأت في بلاد الشام و مصر و لبنان و العراق ـ العمق الحضاري و الإستراتيجي لعر بستان ـ كانت في بدايات نهضتها، و لم تنتقل رياح هذه النهضة إلى عربستان إلا القليل، حيث كانت الانتماءات القبلية و المذهبية الطائفية عند الفرد العربستاني كانت الأقوى منها من الانتماءات الوطنية أو القومية عنده، أو بالأحرى لم تكن المفاهيم الوطنية و القومية معروفة و واضحة و متداولة لهذا الفرد بعد، و هذا بالتأكيد يعتبر تحصيل حاصل لكل تلك الحالة الفوضوية التي كان يعيشها شعبنا العربستاني و المنطقة العربية ـ الإسلامية برمتها.

إن الأحداث الدولية آنذاك كانت تتمخض لبداية حقبة جديدة، نستطيع أن نذكر أهمها بإيجاز:

ـ حدّة التنافس الروسي ـ البريطاني على منطقة الخليج العربي و أهمها إقليم عربستان الذي اكتشف النفط فيه قبل غيرها من الدول العربية المجاورة و في المنطقة ـ و ربما في العالم ـ و كان ذلك في العام 1908 م.
ـ نشوب الحرب العالمية الأولى (عام 1914م).
ـ انهيار الدولة العثمانية.
ـ استلام رضا شاه زمام السلطة في دولة جديدة اسمها (إيران) بعد احتلاله لإقليم الأهواز(عربستان) في العام 1925م و بأوامر و تخطيط بريطاني.
ـ بداية الحكم الوطني في العراق.
ـ اتضاح الأسباب السياسية للمستعمر الجديد (بريطانيا) التي أدّت ـ فيما بعد ـ لعدم تحرّك العراق والدول العربية الأخرى للمطالبة بإعادة بلد عربي استبيح و احتل أمام مرئاهم، و بالتالي كانت كل هذه الأحداث لها أثرها السلبي و المحبط على شعبنا العربستاني و على أميرهم الشيخ خزعل ألكعبي و خصوصاً على أداء حكمه.

و إذا انتقلنا إلى بعض الجوانب الأخرى التي كانت حاصلة في هذا الإقليم من حيث موقعه العربي و السياسي، فإن من جملة الأدوار التاريخية التي قام بها الشيخ خزعل ألكعبي ـ آخر أمير عربي لهذا الإقليم ـ في التكوين السياسي لمنطقة الخليج العربي، نجد بأنه كان يعتبر رائداً و مجسداً لليقظة القومية و النهضة العربية في تلك الآونة من بدايات القرن العشرين، و قد وصف أيضا بأنه أقوى شيخ عرف في جزيرة العرب، حيث أنه وطد علاقاته مع ملوك العرب و أيضا مع الأوروبيين {4}.

و يذكر المؤلفين لكتاب(الشيخ خزعل... أمير المحمـرّة) حول أدوار الشيخ خزعل و مكانته السياسية المرموقة في تلك الآونة قائلين:" وصل الأمر بأن المراكب الأجنبية كانت تطلق له ـ أي للشيخ خزعل ألكعبي ـ مدافع التحية كلما مرت من شط العرب و حاذت قصره. و قد أنعم عليه البابا برتبة فارس لمساعدته ببناء كنيسة في المحمرّة. كما تبرع بمبلغ من المال لمفتي القدس مساهمة منه في تعمير مسجد الصخرة "{5}.

ولكن سيرورة التطور الذي كان يسير في نهجه الشيخ خزعل لم تكن تسير في إطار النمو الموضوعي و لم تكن تسير بشكل النمو التدريجي و الزاحف في عموم الإقليم العربي الذي كان

يحكمه هذا الأمير، حيث أن تلك النهضة العربية و اليقظة القومية كانت تعتبر سابقة لأوانها كما بينتها الأحداث، من جهة، لا سيما أنها لم تكن ناتجة عن التراكمات الموضوعية الحاصلة في إطارها المرحلي، من جهة أخرى، حيث أن آثار تلك النهضة كانت مرتبطة و مؤثرة فقط بالشيخ و حاشيته المقرّبة منه، و لم يكن الشعب العربي في عربستان يعلم معاني تلك اليقظة القومية و الوطنية و لا حتى مستوعباً لها، منها بسبب تدنّي الوعي القومي و السياسي، و غيرها من الأسباب التي ذكرنا بعضها آنفاً.

و لو أخذنا مثالاً حول بناء البنية التحتية و المواضيع ذات الشأن المتعلقة بالدولة و أجهزتها التي كان يروم الشيخ خزعل بإنشائها في إمارته على نمط الدول الحديثة في تلك الأثناء، نجد أنه حاول أن يطبّق(التجربة الضريبية) ـ و بشكل متسرّع دون أن يدرس آفاق و مستلزمات هذه الفكرة الجديدة ـ التي كانت تجربة غربية و حديثة و غير مألوفة في مجتمعاتنا العربية في تلك الآونة، فقد أثار سخط أكثرية شعبنا العربي في الإقليم الذي كان يعتنق نمطاً ((قبلياً)) في إدارة حياته و أسرته و مجتمعه في تلك الآونة، و قد ثارت أغلب القبائل العربية في عربستان ضد هذه التجربة، سيما أن هذه القبائل كانت ترى أن هذه التجربة هي بمثابة انتقاص لرجولة و شهامتهم البدوية و أن القصد الأساسي لهذه التجربة ـ كما يعتقدون ـ هو إذلال شيوخ القبائل و تدمير حياتهم المعاشة، لذلك فقد ثارت بعض هذه العشائر العربية مثل: قبيلة بنو طرف و غيرها من العشائر في العام 1902 م ضد الشيخ خزعل ألكعبي، و أعلنوا الثورة و العصيان عليه و على مشاريعه الظالمة كما كانوا يتصورون.

و مما يؤسف له أن ردة فعل الشيخ خزعل أيضا كانت غير معتدلة بل كانت بالمثل ـ أي بالقوة ـ و في العام نفسه ثارت عليه قبيلة النصـّار ممتنعة عن دفع الضرائب فاكتفى خزعل بترحيل هذه القبيلة إلى الكويت بعد معارك طاحنة كانت نشبت بين الطرفين {6}.

و في هذا الشأن يذكر الدكتور علي الوردي عالم الاجتماع العراقي، يذكر هذه التجربة من خلال إلقاء الضوء عليها و على عقلية البدوي و القبائل العربية في تعاملهم مع هذه التجربة، حيث يبين بأن القبائل كانت لا تتقبل هذه التجربة الضريبية بتاتاً، لأنها تحسب ذلك عاراً عليها، و أن الإنسان القبلي كان لا يخضع لقوانين السلطة و الدولة الحديثة، لأنه لم يتعوّد على هذه الحياة و لم يستطع استيعابها لأن التطور المرحلي لم يكن قد وصل موضوعياً إلى هذه المرحلة الناضجة في تقبلها و التعامل معها و بالتالي فإنه كان يحس بأن هذه التجربة ستنتزعه من كرامته و كبرياءه، لذا كانت القبائل تنبذ هذه التجربة و تواجهها بالنار و الحديد {7}.

المصادر:

4 - راجع كتاب: الشيخ خزعل أمير المحمرّة، إعداد مجموعة من المؤلفين - الدار العربية للموسوعات.

5 - نفس المصدر السابق.

6 - نفس المصدر.

7 - راجع كتاب: الأستاذ الدكتور علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، إصدار مطبعة أمير قُم.

2004 – 9 – 20